الأثر الإسلامي في قصة « موبي ديك »

بقلم الدكتور احسان عباس

القارىء الذي يعرف ان « موبي ديك » قصة كتبت في مئات الصفحات يجد ان تلخيصها في سطور قليلة يشبه محاولة من يخرج لصيد الحوت وهو يحمل صنارة صغيرة . ذلك ان هرمان ملفل حين كتبها كان كأنما يحس انه لا بد من ان يخلق « حوتا » في الضخامة لكي يتسق كتابه مع طبيعة الموضوع الذي يعالجه ، واذا كان الرجل قد خصص لذنب الحوت فصلا كاملا فمن الغبن لكتابه الحوتي ان يشار الى محتواه بكلمات قليلات . ولكن ليست « موبي ديك » موضوع حديثي في هذا المقال ، ولذا فان مما يفي بالغرض الراهن ان اقول انها قصة تتحدث عن رجل اسمه آخاب كان قبطانا لسفينة تدعى الباقوطة، وهي سفينة تحويت ، وفي احدى رحلات تلك الحواتة التقت بحوت عنبر ضخم ابيض اسمه « موبي ديك » فلما طاردته لم تستطع الانتصار عليه ، وكانت نتيجة المعركة عودة آخاب مخفقا وقد فقد احدى رجليه واصيب بشيء يشبه الجنون او هو الجنون نفسه ، ولكنه حشد كل جنونه هذا للانتقام فخرج في رحلة ثانية ولا غاية له الا ان يلقى الحوت ويصرعه ، وتكون جولات تنتهي بتحطيم السفينة وقبطانها وملاحيها جميعا غير واحد ، هو راوي القصة .

ومنذ ان ظهرت قصة « موبي ديك » (١٨٥١) رأى النقاد فيها ابعادا غير الذي ينبىء به ظاهرها وحاولوا تفسيرها على محمل رمزي (او نفسي) ، فقال بعضهم ان الحوت يرمز الى الطبيعة وان آخاب يمثل الانسان في صراعه ضدها . وقال ناقد اخر بل هي سعي الى معانقة الكلي والمطلق مع ما يعترض الطريق الى ذلك من حقائق الارض والسماء . وذهب ثالث الى انها صورة من النقد الاجتماعي اذ الحوت فيها يمثل التصنيع وآخاب يمثل الفرد الرأسمالي . وقال رابع هي صورة للبحث عن الاب . وشغل دارسون اخرون بقدرة ملفل على الحشد من المصادر المختلفة وعلى الهضم والتمثل فذهبوا يدرسون المصادر التي اخذ منها والادباء الذين اثروا فيه ، وكان من ذلك كله دراسات تبلغ أضعاف « موبي ديك » ضخامة، غير انها في اكثرها تعكس اتجاه كل واحد من اولئك الدارسين .

ولو ان دارسا تصدى لتقصي اثر التوراة في هذه القصة من حيث الجو العام والاسماء والاحداث والاشارات او ذهب يدرس اثر شكسبير في رسم الشخصيات لوجد مجالا واسعا للدراسة والمقارنة والاستقصاء ، فاما دراسة الاثر الاسلامي فيها ـ ايا كان نوعه ـ فانها اقل حظا من ذلك بكثير . ذلك ان قرائن الاحوال تدل على ان ملفل لم يتح له الاطلاع على مادة غزيرة تتصل بالعالم الاسلامي والحضارة الاسلامية ، وقد كانت المعرفة ـ لو توفرت اسبابها ـ حقيقة بان تمد قصته بفوائد غير قليلة ، فهو لم يكن يعرف ـ وانى له ان يعرف ـ ما في « الادب البحري » لدينا من معلومات واساطير عن الحيتان ، وهو اذا تحدث عن بياض الحوت وعن اثر اللون الابيض في نفوس الناس وعما يرمز اليه لم يكد يلتفت الى معنى هذا اللون عند العرب والمسلمين في الزي والمجاز اللغوي والاساطير ، بل انه حين سرد في المقدمة اسماء الحوت في اللغات المتعددة لم يدرج بينها اللغة العربية ، وهو يعرف قصة ذي النون (يونان) الذي ابتلعه الحوت من التوراة ، ويستغل هذه القصة استغلالا بعيدا وينشىء حولها موعظة تعد من اجمل ما كتب في هذا الباب، ولكنه لا يعرف شيئا عن هذه القصة كما اوردها القرآن ولا عما نشأ حولها من اساطير شعبية من بعد ، وكل ما يعرفه عنها فيما يتصل بالعالم الاسلامي اجمله بقوله : « ثم ان المسلمين الاتراك المتدينين من ذوي البصيرة المستنيرة لا يزالون حتى اليوم يؤمنون بقصة يونان التاريخية . ومنذ حوالي ثلاثة قرون ذكر رحالة انجليزي وردت رحلته في « رحلات هاريس » ان مسجدا بني باسم يونان وكان فيه قنديل معجز يضيء دون زيت » . والاشارة في ذلك الى ما قصه الرحالة المذكور عن قرية تبعد نصف فرسخ عن دجلة على مقربة من نينوى ، اما القنديل الذي يضيء من غير زيت فلم يرد في كلام ذلك الرحالة وانما وقع ملفل على ذكره في مصدر اخر ، ومزج الخبرين معا .

وقد يذهب بنا التقدير الى ان ملفل اطلع على بعض المترجمات وافاد منها ، فهو يشير في الفصل (٧٩) الى السير وليم جونز ، ويقول انه كان يحسن ان يقرأ في ثلاثين لغة ، وهذا المذكور مستشرق انجليزي من ابناء القرن الثامن عشر (١٧٤٦ ـ ١٧٩٤) وقد ترجم اشياء كثيرة من الادب العربي والفارسي والهندي ، ولكن يبدو ان معرفة ملفل به لا تتعدى اسمه وشهرته ، وليس في الاخبار عن مطالعات ملفل ما يشير الى شيء من الاثار التي ترجمها ذلك المستشرق .

غير ان هناك اشارات متناثرة مستمدة من الشرق الاسلامي تدخل في الاستعمال اللغوي او في الصور

والتشبيهات مثل قوله في وصف البحار الذي حط على جثة الحوت : « كأنه مؤذن يدعو الصالحين للصلاة من قمة مئذنة » أو قوله في تصوير البحارة الهمجيين وهم يمشون : « ان عظامهم تقرقع في كل خطوة كأنها سيوف عربية في اغمادها » . كذلك فهو يستعمل لفظة « امير » العربية عند الحديث عن ضباط الباخرة . او يقول مستعملا لفظة « مفتي » ـ « هل يمكن للصياد الذي يبحث عن حوت واحد ـ حتى لو واجهه ـ ان يقول انه هو حقا ، كما لو كان يبحث عن المفتي الاعظم ذي اللحية البيضاء في اسواق استانبول المكتظة الحاشدة » . وليس من العسير على اديب قرأ قصص ولنز سكوت ان ترسخ في نفسه صورة صلاح الدين ، بل ان شهرة صلاح الدين في الاداب الغربية لا تحتاج الى التوقف عند قصص سكوت ولذا نسمع ملفل يقول في وصف صور الدلفين : « وتجعل له حراشف كزرد الدرع الذي كان يلبسه صلاح الدين ». كذلك فانه يذكر « رمضان » متخذا هذه الكلمة مرة عنوانا لاحد الفصول في قصته ، ويعني بها محض التعبد والصوم او الامساك عن الطعام والشراب ولو كان ذلك ليوم واحد. جاء في معرض الحديث قوله : « اذ يبدو ان ذلك اليوم كان عندهما الصوم الكبير او رمضان » . وورود العبارة على هذا الشكل يدل على طبيعة ملفل في الاقتباس، فالعبارة بهذه الصورة وردت في مذكرات دي كونسي وهو يتحدث عن « لذات الافيون » ويقول « كان صوما كبيرا او رمضان من الامساك عن تعاطي الافيون » ، وكان ملفل قد قرأ تلك المذكرات بين عامي ١٨٤٩ ـ ١٨٥٠ وافاد منها كثيرا.

ذلك هو الجانب الظاهري العابر المتناثر من الاثر الاسلامي في القصة ، فهل نستطيع ان نتغلغل الى ما هو ابعد من ذلك في متابعة ذلك الاثر ؟ حقا ان المحاولة قد لا تعطينا نتائج يقينية ولكن حسبنا في هذه المرحلة ان نقنع بالاثارة والتنويه والتلمس .

فقد ذهب بعض الدارسين الى ان ملفل حاول في بناء شخصية آخاب ان يستمد مكوناتها من نماذج كبرى فتأثر ببعض ابطال شيكسبير مثل هملت ولير ومكبث واقتبس عناصر من شخصية الشيطان في « الفردوس المفقود » لملتون وعناصر اخرى من بروميثيوس ، وحاول اولئك الدارسون ان يقولوا ان في شخصية آخاب ايضا لمحات مستمدة من شخصية النبي محمد عليه السلام .والسؤال الذي يتعرض رأسا اذا نحن سمعنا مثل هذا القول : ترى هل اتيح لملفل ان يتعرف الى شيء عن النبي محمد وعن شخصيته من خلال قراءاته ؟ كان امامه اربعة مصادر اولها : مأساة ذات خمسة فصول كتبها جورج هـ. مايلز وظهرت عام ١٨٥٠ بعنوان « محمد النبي العربي » ، ومن المحتمل ان يكون ملفل قد قرأها . وثانيها كتاب اصدره القس جيمس مريك عنوانه : « حياة محمد ودينه حسب روايات الشيعة في كتاب حياة القلوب » ونشر عام ١٨٥٠ ايضا ، وكان المتعصبون يومئذ يرون فيه عرضا « متسامحا » . ولكن اطلاع ملفل على هذين الكتابين يدخل في حيز الاحتمال ، غير ان اطلاعه على المصدرين الاخرين يعد امرا يقينا ، فاما الثالث بين هذه المصادر فهو سيرة جوته الذاتية ، وقد عرف ملفل بانه كان مشغوفا بمطالعتها قبل ان يأخذ في كتابة قصته . وفي تلك السيرة حلل جوته شخصيات محمد وبروميثيوس واجمنت ووقف عند ما يفيده الادب من مثل تلك الشخصيات . واراد جوته ان يتخذ من شخصية محمد لديه موضوعا لرواية مسرحية يعكس من خلالها حياة اثنين من اصدقائه ، « الا انه رأى فيها شيئا جديرا بالشرف والتعاطف»» ويشهد جوته انه لم يستطع أن يتهم محمدا بالدعوى كما كان ينظر اليه معاصروه ، ولكن الاديب الالماني اساء التصور لدور النبي في الوجود الانساني حين ظن انه يصلح ان يتخذ انموذجا لتلك الاحداث الواقعية التي تؤدي للخراب اكثر مما تؤدي الى الخير ، وكان منشأ هذا الخطل البالغ في ذهنه محاولته ان يطبق حياة الرسول على قاعدة وضعها مقدما ذهب فيها الى ان « كل انسان عظيم المواهب مدعو الى ان ينشر ما في دخيلة نفسه من رسالة الى الناس ، وانه اذ يحاول ذلك يغامر بما لديه من مزايا كبرى حتى ليخسرها كلها في النهاية ، ذلك ان السماوي الخالد في النفس البشرية يصبح حبيس هيكل من المخططات الارضية ، يعجل به الى مصير كل ما هو عارض زائل » . وقد وضع جوته حدود مسرحيته وبنى لها هيكلها العام ثم تخلى عنها لانه اخفق في خلقها ، ولعل اخفاقه يعود الى خطأه في تصور شخصية النبي ومحاولته ان يقسر حقائق التاريخ الشاهدة امام عينيه في نطاق تفسير متعسف مجتلب .

وفي شهر تموز (يوليه) من عام ١٨٥٠ حصل ملفل على رابع تلك المصادر اعني كتاب « الابطال » لتوماس كارليل ، والفصل الثاني منه « دراسة للبطل في صورة الرسول ـ محمد والاسلام » ، ولم تكن فكرة ملفل عن النبي قبل ذلك تختلف عن افكار سائر المتعصبين في عصره ولكن كارليل استطاع ان يغير تلك الفكرة بعض تغيير . ففي كتابه قرأ ملفل مثل قوله : « لقد اصبح من اكبر العار على اي فرد متمدن من ابناء هذا العصر ان يصغي الى ما يظن من ان دين الاسلام كذب وان محمدا خداع مزور » .او قوله : « انما هو (اي النبي) قطعة من الحياة قد تفطر عنها قلب الطبيعة فاذا هي شهاب قد اضاء العالم اجمع ... لقد رأيناه طول حياته رجلا راسخ المبدأ ، صارم العز ،بعيد الهم ... ابن القفار والفلوات ، المتوقد المقلتين ، العظيم النفس » . وفي هذا الفصل تحدث كارليل عن الاسلام وقال انه « ان نسلم الامر لله ونذعن له ونسكن اليه» واقتبس قولة جوته في التعليق على هذا المفهوم : اذا كان ذلك هو الاسلام فكلنا مسلمون . وتعرض لقوة الرسول في الوقوف عند المبدأ ومقتضيات الرسالة وذكر قولته لعمه حين طلب اليه ان يبدي بعض التساهل نحو قريش : والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على ان اترك هذا الامر حتى يظهره الله او اهلك فيه ما تركته » .

وقد يمكن ان يكون هذا الفصل الذي كتبه كارليل منبعا لشيء من الانصاف يحول بعض الاذهان في الغرب عن الهوى والضلال الذي تلبس حول شخصية الرسول ، ولكن أترى ملفل استوحى شيئا منه في بناء شخصية آخاب ؟ حقا ان سعي آخاب نحو تحقيق ما يريد قائم على الاصرار العنيف الذي لا يعرف ترددا او هوادة ، ولكن الحوافز البشرية التي كانت تحفزه الى غايته قائمة على الحقد الذاتي وحب الانتقام . كانت غايته في ذلك هدامة ولم تكن تهدف الى بناء ، كانت نوعا من مواجهة الشر بالشر ولم تكن حربا في سبيل الخير . نعم ان اصراره على غايته يشبه ان يكون كاصرار محمد عليه السلام على بلوغ غايته ولكن الفرق في الغايتين يرسم فرقا كبيرا بين الشخصيتين ، ولعل الرسالة التي وجد آخاب نفسه مدفوعا لتحقيقها انما تشبه ما تصوره جوته من نهاية للرجل الموهوب ، وهو تصور خاطىء اذا اردنا تطبيقه على محمد ورسالته ، واذا كان ملفل قد تأثر بشخصية النبي في تصوير البطل فقد كان تأثره مستمدا من جوته اكثر مما هو مستمد من كارليل . انه لاسهل علينا ان نقول ان روح الانتقام التي كانت توجه آخاب في طريقه انما كانت روحا قبلية تشبه ما يحكى في تاريخ القبائل وذوي النزعة القبلية من حرص على الانتقام وحب الثأر . غير انه لا يمكن ان نرى فيها اثارة من رسالة وجهة نحو الخير . الاسلام انكار للذات ، ذلك هو المفهوم الذي وضعه كارليل في تحليله السابق ، ولكن انكار

آخاب لذاته في سبيل غايته كان احقاقا لتلك الذات لو نجح في خطته ، احقاقا للردية الطاغية التي فسخرت الاخرين في سبيل الفوز . ان البحث عن العلاقة بين شخصيتي الرسول وآخاب انما يمس الظاهر فيما ارى ، كاللقاء في صفة الثبات والاصرار على تحقيق الغاية (وهي صفة قديكون بروميثيوس نموذجا لها ايضا) ـ ذلك الاصرار الذي يمثله فعل آخاب في سياق القصة كما يمثله قوله حين يقول : « لقد مددت الى غايتي المثبتة سكة حديدية ، ورسمت لروحي ان تجري عليها لتبلغها، فانا اندفع دون خطأ فوق مضايق لا يعرف غورها ، وخلال جبال لـم تخترق صعابها وتحت اثباج السيول والتيارات الجارفة . لا شيء يقف عقبة في طريقي . لا انعطاف في السكة الحديدية العامدة . » (الفصل ٣٧) او كقول ملفل يصف آخاب في احد المواقف : « وعيناه تتوهجان كانهما جمرتان ما تزالان تبصان تحت رماد الدمار » فهذا التشبيه يذكر بما قاله كارليل (مع حذف جزئه الاخير) في وصفه للرسول . وجملة القول ان ملفل ان كان اراد استمداد عناصر من شخصية الرسول فانه وقع في ذلك تحت تأثير المصادر القليلة التي اتيح له ان يطالعها وبخاصة ما قاله جوته وكارليل ، وتلك الصورة لا تمثل النبي وانما تمثل كيف تصوره هذان الكاتبان .

وقد اراد ملفل لاخاب ان يكون موسوما ، وقيلت في تعليل هذا الوسم عدة اراء ، والمح بعضهم ـ في سياق القصة ـ الى ان ذلك « سمة » ولدت مع آخاب : « واذا نظرت اليه رأيت وسما دقيقا كانه اثر سفود ، بين البياض والدكنة ، وقد اتخذ طريقه بين شعره الاشيب واستمر نازلا عن اليمين على احد جانبي وجهه ورقبته اللذين سفعتهما الشمس ودبغتهما حتى غاب تحت ملابسه ... هل ولد آخاب يحمل تلك السمة ؟ هل كانت ندبا خلفه جرح رغيب ؟ ما من احد يعرف وجه اليقين في ذلك » . هل اراد ملفل ان يجعل لاخاب هذه السمة لانه قرأ عن خاتم النبوة الذي ذكر متصلا بالرسول ؟ استبعد ذلك واظن انه انما اورد ذكر هذا الوسم زيادة في معاني النذر التي حفت بشخصية آخاب ليقول ان الاقدار ميزته منذ البداية وجعلته معلما بعلامة فارقة منذ ان ولد ، والقول بعلامة تميز الشخص « المقدور » مما يتردد في كتب النبوءات والملاحم شرقية كانت او غربية .

لكن هناك عنصرا اخر في قصة « الحوت » شغل ملفل طويلا ، وتغلغل في مواقف قصته واحداثها ووجهها الى حد بعيد ، اعني تلك النظرة الجبرية التي ترى في مصير السفينة وفي تصرفات آخاب وفي استسلام العاملين معه لامره امرا محتوما مقررا منذ القدم ، لا معدى عنه ولا متحول ، وان السفينة والناس ليسوا سوى شظايا متناثرة فوق تيار الحياة يتلعب بها كيف يشاء . فهو يصف السفينة في بعض فصوله بانها السفينة « التي كتب لها قدرها » ، او يقول في فصل اخر (الفصل ٤٧) مصورا تداخل الضرورة والمصادفة وحرية الارادة في الحياة الانسانية ، مستغلا في تصويره حال النسيج والنول :

« يومئذ كان الاصيل الاول غائما حارا ، والبحارة يتسكعون على ظهر السفينة خاملين ، او يحدقون ساهين في الامواه التي لبست لونا رصاصيا ، وكنت انا وكويكوج ننسج في دعة ما يسمى « حمالة السيف » لكي نضيف الى قاربنا حبلا ، وكان المشهد كله ساكنا مكمدا وان كان استهلالا لشيء يعقبه على نحو ما . وقد انبث في الهواء سحر من الاستبحار ، حتى كأن كل بحار صامت قد غار في زوايا نفسه الخبيئة.

كنت رفيق كويكوج او وصيفه بينما كان هو منهمكا في صنع الحبل ، وحين كنت اسدي والحم الخيوط بين وشائع النول ، متخذا من يدي مكوكا ، وحين كان كويكوج ـ وهو في وقفته الجانبية ـ يمرر سيفه السنديانية دون توقف بين الخيطان ، وينظر متكاسلا نحو الماء ، وهو يضع كل وشيعة موضعها الصحيح في غير اكتراث او تفكير، اقول : حينئذ رانت على السفينة وعلى البحر جميعا حالة غريبة من الحلم لا يتخللها الا الصوت المتقطع البليد الذي يحدثه السيف ، حتى بدا لي وكان هذا هو « نول الزمن » ، وكأني انا نفسي « مكوك » ينسج وينسج اليا ليعلق بالاقدار . هنالك طاقات السداة المثبتة في المنسج ، وهي عرضة لذبذبة وحيدة متكررة ابدا غير متغيرة ابدا ، وهذه الذبذبة لا تسمح الا بخيوط اللحمة كي تتشابك مع طاقات السداة المثبتة . هذه السداة هي الضرورة ، وانا ـ كما حدثتني نفسي ـ ادير بيدي مكوكي واحيك قدري خلال هذه الطاقات التي لا تتغير ولا تتبدل ، وفي الوقت نفسه يجيء سيف كويكوج ، ذلك الحافز السادر ، فيضرب اللحمة ضربا مائلا او معوجا ، قويا او ضعيفا ، كيفما اتفق ، وبهذا الفرق في ضربة الختام يحدث مفارقة مماثلة في الطور النهائي من النسيج المستكمل، وقلت لنفسي : ان سيف هذا البربري الذي يمنح الشكل الختامي لكل من سداة النسج ولحمته ، هذا السيف الهين السادر لا بد ان يكون هو المصادفة ـ نعم المصادفة والارادة الحرة والضرورة : ثلاثة اضداد مجتمعة تعمل معا متداخلة متضافرة ... » .

وليس راوي القصة ـ او القصاص ـ هو وحده الذي يذهب الى هذا الايمان بل ان آخاب نفسه يصرح به في مواقف متعددة ، كقوله حين حاول الضابط الاول في السفينة ان يقنعه بالعدول عن خطته والتنازل عن عناده :

« اي سيد خبيء خداع ، اي امبراطور جائر عسوف يوجهني ، حتى انني اظل اندفع واحتشد وازج بنفسي كل وقت ، مقاوما كل مظاهر الحب والشوق الطبيعيين ، ويجعلني مستعدا لاؤدي ـ دون مبالاة ـ ما لو استأنست بشعور قلبي الطبيعي لم اجرؤ على ان اؤديه! أآخاب هو آخاب ؟ أأنا ام الله ام من ذا يرفع هذه الذراع ؟ ولكن ان كانت الشمس العظيمة لا تجري من نفسها وانما هي عبد مأمور في السماء ، ولا يستطيع اي كوكب ان يدور الا ان تديره قوة خفية، فكيف اذن ينبض هذا القلب الصغير وكيف يفكر هذا الذهن الضئيل ، لولا ان الله هو الذي يسبب النبض والفكر ، هو موجد الحياة لا انا . وحق السماء يا رجل اننا ندار في هذا العالم كذلك الدولاب الرافع والقدر هو المخل » (الفصل ١٣٢) .

وحسبي اقتباس هاتين الفقرتين ، كدلالة على سريان هذه النظرة الجبرية (او شبه الجبرية) في طبيعة القصة حتى انها امتلأت بالارهاصات والنذر الدالة على حتمية المصير . وليس من السهل ان نعين لهذه الفلسفة مصدرا من تلك المجادلات الكلامية التي كانت تدور بين بعض الفرق الاسلامية حول الجبر والقدر ، والتي شغلت المتكلمين المسلمين عصورا طويلة ، ولكن امتزاج حرية ارادة الفرد بالقدر الموجه في صورة « النسيج » التي اوردتها تشبه الى حد كبير تفسير ابن رشد لتداخل هاتين القوتين في الفعل الانساني . واقرب من هذا ان نقول بان ملفل تأثر فكرة « القدر » المسيطر في المأساة اليونانية ، او لعله اعتمد كثيرا على بعض ما جاء في مسرحيات شيكسبير وكان بها شغوفا ، كقول بروتس في مسرحية « يوليوس قيصر » :

في حياة بني الانسان تيار
اذا عب ، قادهم الى الحظ ،
فاذا انحسر او غار حالت رحلة الحياة
الى ضحضاح وويل
على ثبج هذا البحر المخب نحن نعوم
وعلينا ان نذهب مع التيار ما دام ذلك ينفعنا
والا فقد خسرنا كل ما نغامر به .

ولقد قرأ ملفل ايضا ما قاله كارليل في كتاب « الابطال » عن وجوب خضوع الانسان للضرورة ، وعن وجوب الايمان بان ما رسمته الضرورة هو الاحسن والاحكم . وايا كان الامر فان الموضوع قد تناولته اقلام ادباء ومفكرين كثيرين ومن العسير ان نرد موقف ملفل منه الى مصدر دون اخر .

شخص واحد في القصة لم يكن يرى حتمية المصير ، ذلك هو كويكوج المتوحش الهمجي الذي طلب اليهم في مرضه ان يصنعوا له

تابوتا ليسجى فيه ، فلما اتمه النجار واخذه اليه تأمله بنفسه وفحصه، ثم دخل في جوفه ليجرب ما فيه من وسائل الراحة ، وفجأة وبينما كان كويكوج قد اخذ كل اهبة للموت ، ادركه الانتعاش فجأة ، ذلك انه تذكر واجبا على البر لم ينفذه ففير رأيه وعدل عن ان يموت ، فلما سئل : هل الحياة والموت من صنع ارادته المهينة اجاب : يقينا . فقد كان يتصور ان المرء اذا حزم أمره على ان يظل حيا لم يستطع المرض ان يقتله . لا شيء يقتله الا حوت او عاصف او فتاك عنيف جائر ، ومن المفارقات التي رسمها ملفل في قصته ان يتخذ هذا التابوت ـ رمز الموت ـ بدلا من عوامة الانقاذ في السفينة ، وان يكون الاداة التي نجا عليها اسماعيل في النهاية، وهو الشخص الوحيد الذي بقي حيا بعد الكارثة .

وحشد ملفل في البحارة الذين رافقوا آخاب في رحلته افرادا من اجناس مختلفة ، لكن اكثرهم من الملونين ، وهذا شيء طبيعي في مهنة التحويت ، ولكن هبنا قرأنا في هذا التنوع رمزا مقصودا ، أيكون ذلك الحشد رمزا اخر لاختلاف الجنسيات التي انتشرت فيها الدعوة الاسلامية ، وصدى للحديث المأثور : « بعثت الى الاحمر والاسود » ؟ أكان ذلك كذلك ليضفي على آخاب بعض معالم النبوة في « رسالته ». لست اريد ان ابعد في التأويل فكثير من الرموز التي وجدها النقاد في قصته « موبي ديك » لم تخطر لمؤلفها على بال . غير ان اسم واحد من البحارة يستوقف النظر ، ذلك هو الذي سماه القاص Fedallah ، ولا يتطلب المرء طويلا كي يدرك ان هذا الاسم منقول عن اسم اسلامي هو « فيض الله » او « فضل الله » .

وهذا الرجل بارسي (مجوسي) من عبدة النار ، شيخ يلوث على رأسه عمامة بيضاء هي شعره الاشيب وهو في صفرة النمر ، ذو سيطرة نافذة على آخاب خفية الدواعي ، يعده اسطب (احد ضباط السفينة) شيطانا متنكرا يتلعب بعقل القبطان ، شيطانا له ذنب الا انه يودعه ملفوفا في جيبه . وقف آخاب ذات مرة وذلك المجوسي دونه فانطبقت صورة « فيض الله » على خياله ، « واذا كان للبارسي خيال اي خيال فانه اشتبك مع خيال آخاب وزاد في طوله » ، يقظ قلما يستسلم للنوم ولو نام جميع البحارة ، وقد كان هو الذي نبه الى ظهور نفاثة لامعة في ضوء القمر ظنت نفاثة الحوت « موبي ديك » فاذا بها نفاثة خداعة غرارة ، ومن عجب ان هذا البارسي الذي لا يميز نفاثة الحوت من غيرها كان يستطيع ان يتنبأ بالغيب ، فهو الذي اخبر آخاب بان الحوت لن يقتله وان ذلك القبطان لا يقتله الا القنب ، ففسرها آخاب بان القنب يرمز الى « حبال المشنقة » ، وكان البارسي قد انبأه انه (اي البارسي) يموت قبله ، فتحققت النبوءة ومات في اليوم الثاني من مطاردة « موبي ديك » ـ التف عليه الحبل عدة مرات حتى اوثقه بظهر الحوت ، ولما برز لعيني اخاب في اليوم الثالث ادرك ان مصيره وشيك ، وكان القنب الذي قتله هو احد حبال التحويت .

تلك هي الصورة التي رسمها القاص لذلك الشخص البارسي ، ولذلك رأى فيه النقاد رمزا للروح الشريرة التي كانت تهيمن على آخاب وتوجهه ، كأنه الشيطان الذي اغوى حواء وادم ، وبسببهما ايضا طرد من الجنة . كذلك مات البارسي بسبب آخاب ، ولعل الضابط اسطب انما كان يشير الى ذلك حين قال لاخاب : « اجل يا سيدي ، علق في تشابكات حبلك » .

كيف سماه « فيض الله » او « فضل الله » ؟ هل كان ذلك من باب المفارقة امعانا في ابراز شيطانيته ؟ هل كان « الفيض » او « الفضل » يعني ما لديه من قدرة على التكهن بالغيب ؟ او هل «الفيض» يشير الى النار التي كان يعبدها ، وهي قوة « النور » الفائضة السارية في الوجود ؟

في « الف ليلة وليلة » قصة يرد فيها اسم « فضل الله » وهو امير على الموصل ، له زوجة اسمها « زمردة » ، جاء الى بلاطه ذات يوم درويش ، اصبح من خلصائه ، وحدثه عن سر تعلمه من شيخ برهمي، وهو احياء ميت باحلال روحه (اي روح الدرويش) فيه . ومرة خرجا للصيد وجرب الدرويش « سره » في غزال ميت فرد اليه الحياة ثم استرد روحه منه ولما حاول الامير فضل الله ان يفعل مثله ، واصبح جسده بلا روح ، احتال الدرويش بحيث حلت روحه هو في جسد الامير واستولى على عرشه وزوجه . اما روح فضل الله التي حلت في الغزال فقد بقيت هنالك ثم انتقلت الى جسم بلبل وقع الى زمردة فربته واعتنت به . ومات للاميرة كلب ، فانتقلت روح فضل الله من البلبل اليه ، فاصبح البلبل بلا روح ـ ميتا ـ فحزنت عليه الاميرة حزنا شديدا . وتتطور حوادث القصة تطورا متلاحقا . ولكن ما يهمنا منها في هذا المقام هو اسم الامير ، والقوة الخارقة التي اوتيها ذلك الدرويش المحتال .

والظن قوي بان ملفل قرأ هذه القصة ثم نسي تفصيلاتها مع الزمن ، فمنح البارسي في قصته قدرة الدرويش واسم الامير ، خلطا منه جره عليه النسيان ، وخيل له ان القصة فارسية ، فجعل الشخصية التي اختارها لقصته كذلك ، ولم يكن يدري ان « البارسي » لا يمكن ان يحمل اسما مثل « فيض الله » او « فضل الله » ، لانه اسم اسلامي.

غير ان القصة تتطلب ان يكون هذا الشخص مجوسيا ، فهو صنو لاخاب او هما نفس واحدة انشقت الى اثنين . يقول ملفل متحدثا عن آخاب : « ولكنك لو تأملته في عمق وهو في احدى ساعاته الامينة الواثقة ، حين كان يظن ان لا عين تراه الا عين واحدة ، لرأيت انه بينما كانت عينا آخاب ترهبان عيون البحارة ، فان نظرة البارسي المبهمة كانت ترهب نظرة آخاب او على الاقل تؤثر فيها على نحو غريب . ومثل هذا المزيد من الغرابة السارية اخذ يكتنف فيض الله النحيل . مثل هذه الارتعاشات المسترسلة اخذ يهزه حتى اخذ الرجال يتطلعون اليه في ارتياب ، غير مستيقنين اليقين كله انه حقا مصنوع من مادة الادميين ، او انه خيال مرعب القاه على ظهر السفينة جسم كائن خفي .... كانت حلقة سحرية قوية كأنما تربط سرا بين الاثنين .... كأن آخاب يرى في البارسي خياله ملقى امامه ، وكأن البارسي يرى في آخاب كيانه الجسدي الذي بارحه » (الفصل ١٣٠) .

وسر هذا التلاقي بينهما ليس فحسب وحدة مصير وانما هو في قداسة النار لكليهما ، فقد عبر آخاب ايضا في مواقف مختلفة عن نوع من العبادة للنار ، من ذلك قوله حين كان يرى شعل البرق المتطايرة : « اه يا روحا صافية من نار صافية كنت اعبدها ذات يوم فوق هذه البحار كما يعبدها الفارسي حتى حرقتني في شعيرة قربانية فانا لا ازال احمل ندوبها حتى الساعة .... وراءك شيء لا يمتزج بغيره ايتها الروح الوضاءة ، ليست ابديتك ازاءه الا زمنا ، ليست قدرتك على الخلق ازاءه الا الية ، من خلالك من خلال نفسك الملتهبة تراه عيناي المحرقتان رؤية غائمة ، ايتها النار اللقيطة ، ايتها الناسكة الازلية ان فيك لغزك الذي لا يحل ... » .

وما هذه الصلوات والمناجيات التي يرفعها آخاب الى النار تارة والى الشمس اخرى الا ترجمة محورة لتلك الصلوات التي يتوجه بها بعض حكماء الهند الى الشمس عند شروقها ويقولون : « ما احسنك من نور ، وما ابهاك وما انورك ، فان كنت انت النور الاول الذي لا نور فوقك فلك المجد والتسبيح... وان كان فوقك واعلى منك نور اخر انت معلول له ، فهذا التسبيح والمجد له ... واذا كان المعلول بهذا البهاء والجلال فكيف يكون بهاء العلة وجلالها ومجدها وكمالها » ـ ذلك ما اورده الشهرستاني ، ومن التعسف ان نزعم ان ملفل يمكن ان يكون اطلع على اشياء مترجمة منه ، ولكن الشيء بالشيء يذكر ، واذا كانت «موبي ديك» تعرض بعض معالم اسلامية فانها تعرض ايضا مؤثرات شرقية عامة ، فقد كان كاتبها انتقائي النزعة ، يأخذ من هنا وهناك ويؤلف بين الاشتات المتباعدة في نطاق .

احسان عباس